سلسلة حكايات قرآنية (١)

سفينةُ النَّجاةِ

إعداد

عاطف عبد الرشيد

obeikandl.com

obeikandl.com

اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالَى ـ هُو خَالقُ هَذا الكونِ، والمدبِّرُ لكلِّ مَا فيهِ، وهُو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

وقَدْ وردَتْ في القرآنِ الكريمِ العديدُ من القِصصِ التي تؤكِّدُ على قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّهُ ـ سبحانهُ ـ فعَّالٌ لما يُريدُ، وأمْرُهُ بينَ الكافِ والنُّونِ، فإذَا أرادَ شيئًا يَقولُ لهُ: كُنْ، فيكُون.

وسفينةُ نُوحٍ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ قصَّةٌ تتحدَّثُ عَن قُدرةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وتُخبرنَا كيفَ أغرقَ الله ـ سُبحانهُ ـ الكافرينَ من قَوم نُوحٍ، بينمَا نجَّى المؤمنينَ بقدرتهِ في هَذهِ السفينةِ العظيمةِ.

وفي هذا الكتابِ نتعرَّفُ عَلى هَذه القصَّةِ، فنأخُذُ منها العبرةَ والعظةَ، وتتبينُ لنَا قُدرةُ اللهِ العَظيمِ، ونَعلمُ أنَّ الفلاحَ والنجاحَ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

الرِّجالُ الصّالحونَ

خلقَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الإنسانَ، وفضَّلَه على كثيرٍ من المخلوقاتِ، وأَنعمَ عليهِ بالعديدِ من النِّعمِ ظَاهرةً وبَاطنةً.

واللهُ ـ سبحانهُ ـ يُحبُّ الخيرَ لعبادِهِ، ويُريدُ منهُمْ تَوحيدَهُ والتعرُّفَ عليهِ، قالَ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقَدْ عَرفَ آدمُ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ هَذهِ الحقيقَةَ، فعاشَ هو وأولادُه يَعبدُونَ اللهَ، ولا يشركونَ بهِ شَيئًا حتَّى تُوفِّيَ عَلَيهِ السَّلامُ. وظلَّ النَّاسُ يعبدونَ اللهَ عَشَرةَ قُرونٍ بَعدَ آدمَ عَلَيهِ السَّلامُ، حتَّى عُرِفَ من بينهِمْ خَمسةُ رجَالٍ طيبينَ، وهُم: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويَغُوثُ، ويَعُوقُ، ونَسرٌ، وكانُوا يُعرَفونَ بالصلاحِ والتَّقوى والعبادةِ، فأحبَّهم النَّاسُ واقتَدَوْا بهِمْ.

وفَجأةً حَدثَ شيءٌ حَزينٌ، لقَدْ ماتَ هؤلاءِ الرِّجالُ الصَّالحونَ، ماتُوا جَميعًا؛ فحزنَ النَّاسُ عَليهم حُزنًا شَديدًا.

❊ ❊ ❊

عبادةُ الأصنامِ

انتهزَ الشيطانُ فُرصةَ حُزنِ النَّاسِ عَلى موتِ هؤلاءِ الصَّالحينَ، فوسوسَ لهُمْ أَنْ يصنَعوا صُورًا وتماثيلَ لهؤلاءِ الرِّجالِ، ففعلُوا، وصنَعُوا التماثيل لكي يتذكَّروا بهَا الصالحينَ، وأطلقُوا على كلِّ تمثالٍ اسمَ رَجلٍ صَالحٍ.

وكانَتْ هذه حِيلةُ الشَّيطانِ اللَّعينِ إلى ضَلالِ النَّاسِ، فالشَّيطانُ قَدْ توعَّدَ آدمَ وذريَّتَهُ أن يُضلَّهم، ويأخذَهم إلى طريقِ الكفرِ والشركِ باللهِ، لأَنَّهُ ظنَّ أنَّ آدمَ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ هو سَببُ طَردِه من رحمةِ اللهِ، وذلكَ عندمَا تكبَّرَ ورفضَ السُّجودَ لهُ، فقالَ لهُ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

فقالَ الشيطانُ: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٣].

فطردَهُ اللهُ من رحمتِه، وقالَ لهُ: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

وهُنَا توعَّدَ الشيطانُ آدمَ وذُرِّيَّتَهُ أن يُضلَّهم ويُغويَهُمْ، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٠].

فكانَ من سُبلِ ضلالِهِ، وطرقِ غوايتِه أن يُوسوسَ للنَّاسِ بصنعِ تماثيلَ للصَّالحينَ، بحجَّةِ أن يتذكَّروا حَياتَهم وأَعمالَهم، فيعملُوا مثل أَعمالِهم الصَّالحة، فكأنَّهُ يُرشدُهُمْ إلى الخيرِ والعبادةِ، وهو في الحقيقةِ يَفتحُ لهُمْ بابًا من أبوابِ الشرِّ؛ ليدفَعَ بهِمْ إلى الذنبِ الأَعظمِ، وهوَ الشِّركُ باللهِ تعالَى.

وصنعَ النَّاسُ التماثيلَ، وكانُوا يزورُونَها، ويجلسُونَ بجوارِهَا، فيتذكَّرونَ أصحابَها، ويتحدَّثُونَ عن إيمانِهِمْ وتقواهُمْ.

وظلَّ النَّاسُ مدّةً طويلةً على تلكَ الحالِ، ثُمَّ ماتَ هؤلاءِ النَّاسُ، وجاءَ أولادُهُمْ وأحفادُهُمْ، فازدادَ تعظيمُهُمْ لهذهِ التَّمَاثِيلِ، ووسوسَ لهم الشيطانُ أنَّ أَجدادَهُمْ كانُوا يَعبدُونَ هذه الأَصنامَ، فسمعُوا كلامَهُ وعَبَدُوهَا.

وكانَتْ هذه أوَّلَ مرَّةٍ تُعبدُ فيهَا الأصنَامُ من دونِ اللهِ؛ حيثُ اتَّخذَ النَّاسُ هذه التماثيلَ الخَمسةَ آلهةً لهُمْ، فأشركُوا باللهِ ظنًّا منهُمْ أن عِبادةَ هذه الأَحجَارِ تُقرِّبُهم إلى اللهِ، وتشفَعُ لهم عندَهُ، فركعُوا وسجدُوا لهَا، وطَافُوا بهَا، وراحُوا يَذبحُون أمامهَا الذَّبائحَ، ويتقرَّبُونَ لهَا بالقُرُباتِ.

وانتهزَ المنتفعُونَ من وراءِ هذه الأَصنَامِ الفُرصةَ، فأَشاعُوا في النَّاسِ أَنَّها تَضرُّ وتَنفعُ، وتُحيِي وتُميتُ، وتتحكَّمُ في معاشِ النَّاسِ وحياتِهِمْ، فهي تَنْصُرُهُمْ في الحربِ، وتَرزُقُهُمُ الأموالَ والأبناءَ، وتَمنعُ عنهُمُ المصائبَ والكوارثَ، فَرَسخَ ذلكَ في نُفُوسِ النَّاسِ، وصَارتْ عِبادةُ الأصنامِ هي عَقيدتَهُمْ وملَّتَهُمْ، يتوارثُونَهَا جِيلًا بعدَ جِيلٍ.

❊ ❊ ❊

أوَّلُ الرُّسلِ

فلمَّا عبَدَ النَّاسُ الأَصنامَ بَعثَ اللهُ إليهِمْ رَسولًا منهم، هو نوح عليه السلام، فدعاهم إلى الإيمانِ باللهِ وحدَهُ، وعَدمِ الإشراكِ بهِ، وأَمَرَهم أن يمتنعُوا عن عبادةِ الأصنامِ والتماثيلِ، فقالَ لهُمْ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وكانَ نوحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - حَريصًا على نجاةِ قومهِ من الهلاكِ، لا يرجُو لهم إلا الخيرَ، فكانَ يتلطَّفُ في خِطابِهِمْ، ويَدعُوهُم إلى اللهِ بكلِّ السُبلِ، فأَظهَر خَوفَهُ عليهِمْ، وقالَ لهُمْ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وعُرِفَ نُوحٌ بينَ قومه بالأَمانةِ والصدقِ، فلَمْ يَطلبْ

منهُمْ أَجرًا ولا مَالًا، ولم ينتَظرْ مُكافأةً أو ثَوابًا إلا من اللهِ سبحانهُ، فكانَ يقولُ لهُمْ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود: ٢٩].

ولفَتَ نُوحٌ أنظارَهم إلى آياتِ اللهِ سبحانَهُ في أنفسِهِمْ؛ حيثُ خَلقَهم اللهُ - عزَّ وجلَّ - في مَراحلَ وأطوارٍ مُختلفَةٍ، كمَا لفتَ أنظارَهُمْ إلى آياتِ اللهِ في الكونِ والآفاقِ؛ لعلَّهم يَهتدُون إلى وحدَانية اللهِ، وينتهونَ عَن عبادةِ تلكَ التماثيلِ، فقالَ لهُمْ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣ - ٢٠]. وهذَا الكَلامُ هُو أفضلُ أساليبِ الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لأنَّ نُوحًا - عَلَيهِ السَّلامُ - يَدعُوهُم إلى اللهِ مُبيِّنًا لهُمْ أنَّهُ - سبحانَهُ - هو المستحقُّ للعبادةِ، مُؤكِّدًا على ذلكَ بما خَلقَ من مَخلوقاتٍ عَظيمةٍ كالسماءِ والأرضِ...

كُفرٌ وعنادٌ

واستمرَّ نُوحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - يَدعُو قَومَهُ، ولكنَّهُمْ أعرضُوا عنهُ، فكانُوا لا يستمعونَ إليهِ، وإذَا رأوهُ ابتعَدُوا عنهُ، ووضعُوا أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ حتَّى لا يسمعُوا كلامَهُ، وغَطَّوْا وجوهَهُمْ حتَّى لا يروهُ، ومعَ ذلكَ لم يَيأسْ نُوحٌ، وواصلَ دعوتَهُ بالليلِ والنهارِ، في السرِّ والعلانيةِ، وكانَ يُناجي ربَّهُ ويقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩].

وظلَّ نوحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - على تلكَ الحالِ، يَدعُو قومَهُ دونَ كللٍ أو مللٍ ألفَ سنَةٍ إلا خمسينَ عَامًا، وكلَّما أعرضَ قومُهُ غيَّر وبدَّل في أُسلوبِهِ؛ وكانَ رَحيمًا بهِمْ، خَائِفًا عليهِمْ، صَابرًا حَليمًا، فكانَ من الواجبِ أن يدخلَ قومُ نُوحٍ

في الإسلامِ، وأَنْ يكسرُوا تلكَ التَّماثيلَ، ويعبدُوا اللهَ وحدَهُ، لكنَّهم ازدادُوا كُفرًا وعِنادًا، واجتمعَ الأغنياءُ المترَفونَ، وشنُّوا حَربًا شَعواءَ على نُوحٍ، وسَعَوْا يُفسدونَ في الأرضِ، ويستخدمُون وسائلَ كثيرةً في مُحاربةِ رسولِ اللهِ نوحٍ عَلَيهِ السَّلامُ.

فكانُوا يعترضونَ على نوحٍ بأن أَتباعَهُ فُقراءُ مُستضعفونَ، وليسَ معهُ أحدٌ من الأَشرافِ والسَّادةِ، فيقولونَ لهُ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

ثُمَّ طلبَ هَؤلاءِ الكفَرَةُ من نبيِّ اللهِ نُوحٍ - عَلَيهِ السَّلامُ - أنْ يَطرُدَ مَنْ آمنَ معهُ مِنَ الضُّعفاءِ والفقراءِ، فقالَ لهُمْ نُوحٌ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤].

كما أخَذَ هَؤلاءِ الكافرونَ يتَّهمُونَ نُوحًا بتُهَمٍ باطلةٍ، فَتارةً يقولونَ: إنَّهُ ضَالٌّ، قالَ تعالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. وتَارَةً يدَّعي

بعضُهم أنَّـهُ كذَّابٌ، وتَارةً يتَّهمونَهُ بالجنونِ، وكانَ نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ يَجدُ البلاءَ والأذى مِن قومِهِ ومِن زوجتِهِ؛ فقَدْ كانَتْ كَافرةً تَنقلُ إلى قَومِهَا أخبارَ نُوحٍ وأسرارَهُ، فإذَا آمنَ بهِ أحدٌ أخبرَتْ قومَها بذلكَ، كذلكَ رفضَ ابنُ نُوحٍ أنْ يُسلِمَ، ولَمْ يَستجِبْ لأبيهِ، بَلْ أعرضَ عنهُ ووقفَ في صفِّ المشركينَ.

وازدادَ قومُ نُوحٍ نُفورًا وعَداوةً لهُ، وبلغَ بهِمُ الحمقُ مُنتهاهُ عندمَا صَاروا يستعجلونَ العذابَ الَّذي يُحذِّرُهم منهُ نُوحٌ عَلَيهِ السَّلامُ، فحسمَ اللهُ سُبحانهُ القضيَّةَ، قالَ تعالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

فلَمْ تنفعهُمُ المواعظُ، وراحُوا يُهدِّدُونَ نُوحًا ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ بالقتلِ والرَّجمِ؛ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

فدعَا نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ ربَّهُ وقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا

يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨].

صناعةُ السَّفينةِ

فلمَّا دعَا نُوحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - ربَّهُ أَنْ يُهلكَ الكافرينَ، أمرهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - أَنْ يصنعَ سَفينةً عَظيمةً من أَخشابِ الأشجارِ التي كانَتْ في الصحراءِ، وأَنْ يحملَ فيها مَن آمنَ معهُ، ومِن كلِّ المخلُوقاتِ زَوجينِ: ذَكرًا وأُنثى، وجعلَ اللهُ - سُبحانَهُ - لنُوحٍ - عَلَيهِ السَّلامُ - عَلامةً على هَلاكِ النَّاسِ، وهي أنْ يفورَ التَّنورُ بالماءِ.

فتوجَّه نُوحٌ - عَلَيهِ السَّلامُ - إلى الأشجارِ، وراحَ يقطَعُها، ويَجعلُ منهَا ألواحًا كَثيرةً، بعضُهَا طَويلٌ وبعضُهَا قَصيرٌ، ثُمَّ أخَذَ - عَلَيهِ السَّلامُ - هذه الألواحَ الخشبيَّةَ، وبدأ يَصنعُ السَّفينةَ كمَا أَمرَهُ اللهُ تعالَى، وعاونَهُ مَنْ آمنَ معهُ، بينمَا سَخِرَ منهُ المشركونَ، وضحكُوا من صُنعِهِ لهذهِ السَّفينةِ؛ حيثُ لا بحرَ ولا ماءَ تجري عليهِ، وكانُوا يستعجلونَ العذابَ، ويقولونَ

بسخريةٍ واستهزاءٍ: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وبعد أن انتهى نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ من صُنعِ السفينةِ، وصَارَتْ سفينةً قويةً متينةً، حملَ عليهَا من كلِّ شيءٍ زَوجينِ: من الحيواناتِ والطيورِ وجميعِ المخلوقاتِ، وصعِدَ نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ عَلى ظهرِهَا هو ومَن آمنَ معهُ.

الطُّوفانُ

وحانَتْ لحظةُ العذابِ، فجاءَ الأمرُ من اللهِ ـ سُبحانَهُ ـ للأرضِ أن تتفجَّرَ بالماءِ، وللسماءِ أنْ تُنزلَ المطَرَ، فكانَ الماءُ ينزلُ من السماءِ بغزارةٍ شَديدةٍ؛ وكأنَّهُ شلَّالاتٌ مُتدافعةٌ بقوةٍ، وكانَتِ المِياهُ تَجتاحُ مَا في طريقِهَا من البيوتِ والنَّاسِ، وتفجَّرتْ عيونُ الماءِ من الأرضِ، وفارَتْ بكثرةٍ وسُرعةٍ، فكانَ الماءُ يَصعدُ ويتفجَّر من الأرضِ وينزلُ من السماءِ في آنٍ واحدٍ، حتَّى التقَى الماءُ، وغطَّى كلَّ شيءٍ، أمَّا السفينةُ فكانَتْ تطفُو على سطحِ الماءِ، وتَرتَفعُ شَيئًا فشَيئًا، والمؤمنونَ على ظهرِهَا.

ورأى نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ ابنَهُ يُصارعُ الأمواجَ، فحاولَ أن يُنقذَهُ في بداية الطُّوفانِ، فنادَى عليهِ قَائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فاستكبرَ الابنُ، وأصرَّ على كُفرِهِ وعنادِهِ، وقالَ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣]، فردَّ عليهِ نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ قائلًا: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ﴾ [هود: ٤٣]، وارتفعَ الماءُ حتَّى غطَّى قِمَمَ الجبالِ، واشتدَّ الطُّوفانُ، وغرقَ ابنُ نُوحٍ مَع مَن غرقَ من الكافرينَ.

وتحركَتْ في نبيِّ اللهِ نُوحٍ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ عَاطفةُ الأُبوَّةِ وهو يَرى الموتَ يَصرعُ ابنَهُ، فنادَى ربَّهُ وقالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فقال اللهُ سبحانَهُ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. فأسرعَ نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ يستغفرُ ربَّهُ، ويعتذرُ إليهِ، ويقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فقَدْ كانَ نُوحٌ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ مُؤمنًا، وابنُهُ كافرًا، فهو إذًا ليسَ من أهلهِ، إنَّما أهلُهُ هُمُ الذينَ آمنُوا بهِ، وكانُوا على دينهِ ومِلَّتِهِ.

وخِلالَ زَمنٍ قَليل أهلكَ اللهُ الكافرينَ، وأنجَى المؤمنينَ، وتمَّ أمْرُهُ سُبحانَهُ كمَا شاءَ وأرادَ.

وبعدَ ذلكَ أمر اللهُ الأرضَ أن تبلعَ ماءَها، والسماءَ أن تكفَّ عن مطرِهَا، قالَ تعالَى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وظلَّتِ السفينةُ تسيرُ على الماءِ حتَّى رستْ على جَبلِ الجُوديّ، فنزلَ مِنْ عَلى ظهرِها نبيُّ اللهِ نُوح ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ ومَن معهُ من المؤمنينَ ومن المخلوقاتِ؛ لتبدأ على الأرضِ حياةٌ جديدةٌ طَاهرةٌ، ليسَ فيها كُفرٌ ولا أصنَامٌ، وإنَّما كُلُّهَا تَوحيدٌ وإيمانٌ باللهِ تعالَى.

❊❊ ❊❊ ❊❊